قصة يوسف

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: 3].

بهذه الآية الكريمة ندخل في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، فما سبب نزول هذه الآية؟ جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ألا تقص علينا قصة؟! انظر إلى فطرة الصحابة البسيطة، يريدون تغييراً من النبي، ليس الأمر كله أوامر ونواهي، فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، أترى! بمجرد أن يطلبوا من رسول الله أن يقص عليهم قصة يستجيب الله لدعائهم.

إنها أول سورة تنزل كاملة.. أول قصة تُحْكَى بكاملها وبالتفصيل في سورة واحدة.. إنه لشيء عجيب! لو نظرنا إلى سورة أخرى لوجدنا فيها مقتطفات من القصص، هنا من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام.. وهنا من قصة سيدنا هود عليه السلام.. وهكذا، لكن لأول مرة تأتي قصة كاملة من أولها لآخرها، وكأن الله تعالى يقول: هذا هو قصص الأنبياء، أُفَصِّل أشياء.. وأكرر أشياء.. وأجمع أشياء، لكل معجزة..

لماذا سُمِّيَت بِأَحْسَنِ القَصَصِ

لماذا سميت هذه بالذات بأحسن القصص؟

على الرغم من أن قصة سيدنا إبراهيم.. سيدنا إسماعيل.. سيدنا موسى مع فرعون، كل تلك القصص موجودة بالقرآن.. فلماذا هذه القصة بالذات؟

لأنها القصة الوحيدة في القرآن التي جمعت الحِكَمْ، العِبَرْ، والعِظَات التي يحتاجها المسلم في دنياه وأخراه، فلا توجد قصة في القرآن مثلها، ولذلك هي أحسن قصة في القرآن على الإطلاق.

إن قصة سيدنا يوسف عليه السلام، هي القصة الوحيدة من بين القصص رغم اختلاف كُلٍّ شخوصها مع بعضهم البعض، التي انتهت بسعادتهم جميعاً، فنجد المسيء، والمتآمر، والمرأة التي... كل هؤلاء أصبحوا سعداء!!.. كيف ذلك؟! كيف كانت نهاية سيدنا

يوسف عليه السلام؟ أصبح عزيز مصر.. قاد الدنيا كلها.. جاءَ أبوه وإخوته وسجدوا له..

سيدنا يعقوب عليه السلام كيف كانت نهايته؟ وجد ابنه الفقيد.. رُدَّ إليه بصرُهُ.. رأى ابنه في أعلى المناصب.. جمع شمل الأسرة الكريمة.. امرأة العزيز كيف كانت نهايتها؟ لقد تابت ورجعت إلى الله.. قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 51].

نسوة المدينة كيف كانت نهايتهن؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: 51].

إخوة يوسف ماذا كانت نهايتهم؟ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف: 97].

ساقي الملك الذي أخرج سيدنا يوسف عليه السلام من السجن كيف كانت نهايته؟ آمن بسيدنا يوسف في نهاية القصة.. كل عناصر القصة كانت نهايتها سعيدة.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: 3].

مسرح الأحداث

هل تعلم أين جرت أحداث هذه القصة؟

لقد جرت الأحداث بين بلدين: فلسطين موطن سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما السلام.. ومصر.

لكن في أي منطقة في فلسطين؟

هناك آية في القرآن تحدِّد لك بالضبط أين كانوا في فلسطين؟ كانوا في جنوب فلسطين..

ولكن لماذا؟

لأنها منطقة بدوية..

وما علاقة المنطقة البدوية بفلسطين؟

اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[يوسف: 100]، فأحداث القصة جرت بين جنوب فلسطين ومصر.. مصر التي عاش بها كثير من الأنبياء.

قصتنا مع هذا النبي قصة انهيارات أخلاقية، فعندما تقرأ هذه السورة تشعر بأنها تركز على الإنسان الذي جدَّ وثبت في الأخلاق، هي قصة مِحَنٍ متتالية، هي قصة توكل على الله سبحانه وتعالى.

يوسف مع أهله وإخوته

لقد بدأ سيدنا يوسف حياته برؤية رآها وهو صغير يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4].

أنت تعلم أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان له اثنا عشر ولداً، منهم: سيدنا يوسف، ومنهم أخو سيدنا يوسف: بنيامين من نفس الأم، والباقي من أم أخرى، تقول الرؤيا: إن سيدنا يوسف رأى أحد عشر كوكباً، والشمس، والقمر ساجدين له.. بالطبع أنت تعلم تأويل الرؤيا: **الأحد عشر كوكباً**: هم إخوة سيدنا يوسف.. **والشمس**: أبوه.. **والقمر**: أمه.

من لطائف القرآن

لقد عَبَّرَ يوسف عليه السلام عن أبيه بالشمس، وعن أمه بالقمر... لماذا؟

ذلك، لأن القمر فيه الحنان والدفء.. فيه العاطفة.. فيه الضوء الخافت الرقيق في الليل المظلم... هذه هي الأم.. فما أحبها!! وما أرقها!! وما أجملها!!

وأما الشمس فتعني: الوضوح والرؤية، فالأب هو الذي يعلمك.. يبصرك.. يرشدك إلى طريق الصواب.. هو الذي سيأخذ بيدك.

هل علم سيدنا يعقوب عليه السلام تفسير الرؤيا أم لا؟

بالطبع كان يعلم تفسير الرؤيا، بدليل أنه قال لابنه:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: 5].

لماذا لم يخبر سيدنا يعقوب عليه السلام ابنه بتفسير رؤيته في حينها وفي وقتها؟ لماذا لم يقل له: يا بني ستقود الدنيا كلها وسنسجد لك؟ لماذا تركه لِقَدَرِ الله؟

انظر! إن هذا الأمر مهم جدّاً ويجب أن ينتبه إليه نساؤنا وأخواتنا. والسبب في ذلك كله خوف سيدنا يعقوب عليه السلام على ابنه، فلو قال له: ستقود الدنيا كلها وسيسجد لك إخوتك هؤلاء. لَشَبَّ الابن وهو متواكل على هذا الأمر يقضي حياته في انتظار تحقيقها ولن ينشأ بشكل جيد...

انظر إلى حكمة سيدنا يعقوب عليه السلام، إنه لو قص على ابنه تفسير الرؤيا، لتَسَرَّبَ إليه شيء من التعالي والتكبر، وهو ما يزال صغيراً، فتركه يواجه قدر الله بنفس راضية واجتهاد دؤوب.

وانظر إلى فطنة يوسف الطفل كيف نادى أباه؟ لقد قال: يا أبت، مما يدل على فطنة الطفل في إبلاغ الرؤيا لأبيه، ونلمح هنا قوة العلاقة بين الابن وأبيه، لم يذهب سيدنا يوسف لأمه، لأنه يحتاج إلى حكمة أبيه وبصيرته. وكثير من الشباب يفتقر إلى هذا الأمر.

مَنْ مِن الشباب إذا رأى رؤيا يذهب لوالده ويقصها عليه؟ أظن الإجابة ستكون مؤلمة، فالأب مشغول دائماً فهو يعمل أو مسافر إلى الخارج، ليؤمِّن المال لأولاده، وآخر شيء يفكر فيه الأب أولاده، وقد يكون الابن سبباً في بعد والده، لأنه لا يريد أن يعطي الفرصة لوالده كي يقترب منه، فالابن لا يخبر أحداً بهذه الأشياء إلا أصحابه وأصدقاءه، أما الأب فلا يعلم شيئاً عن أحوال ابنه، فما أحوجنا في هذه الأيام إلى دفء العلاقة بين الأب وابنه!

حِرْصُ الأب على قلوب أبنائه

أمر سيدنا يعقوب عليه السلام ابنه يوسف ألا يحكي رؤياه لإخوته لسببَيْن مهمَّيْن:

الأول: حذره من كيد إخوته له.

والثاني: غيرة إخوة يوسف منه.

فحرصاً على قلوب أبنائه منع ابنه من أن يقص رؤياه على إخوته.

فلقد شعر يعقوب عليه السلام بالخطر على ابنه يوسف إذا علم إخوته بالرؤيا، وشعر بالخطر عليهم وتغير قلوبهم نتيجة الحقد والغيرة، فخاف عليهم جميعاً فهم أبناؤه.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: 5]، لماذا جاءت الآية بالشيطان بعد فيكيدوا لك كيداً؟

لأنه ما من حسد وحقد أو ضغينة إلا وكان الشيطان وراءها. هناك أشياء تكون النفس وراءها، مثل: شهوة أكل، شهوة فرج، ومن الممكن أن يكون الشيطان وراء ذلك أو النفس.

أما الغضب والحقد والحسد فإنه من الشيطان، ولذلك فإذا وجدت نفسك غاضباً ولا تستطيع أن تسيطر على نفسك فاعلم أن هناك شيطاناً مسيطراً عليك، إذا وجدت حقداً في قلبك أو حسداً فاعلم أن الشيطان مسيطر عليك، ولذلك يقول النبيّ ﷺ: «**إنَّ الغضبَ منَ**

الشيطانِ، وإنَّ الشيطانَ خُلِقَ منَ النارِ، وإنمَا تُطْفَأُ النارُ بالماءِ، فإذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»[1].

ويقول أيضاً: **«إياكمْ والحسَدَ، فإنَّ الحسَدَ يأْكُلُ الحَسَناتِ كمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبُ»**[2] فاحذر أخي من هذا الأمر، لأنه مع كل لحظة حسد ستؤكل حسناتك وتضيع أعمالك...

والحسد كان سبباً في ضياع إخوة يوسف أربعين سنة.

ما سبب حسد إخوة يوسف له؟

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: 8].

من خلال هذه الآية نلاحظ أن إخوة يوسف ربما لهم الحق في حسد سيدنا يوسف عليه السلام، لأن أباه يعامله معاملة طيبة، ويميزه عن باقي إخوته. لكن هذا مستحيل... لماذا؟ لأن سيدنا يعقوب عليه السلام نبي، والأنبياء معصومون.

لقد كان حريصاً على قلوبهم ومشاعرهم في قوله لابنه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: 5]، ولكن من المؤكد أن الأبناء أحسوا بهذا الفارق في المعاملة، إذ إن يوسف طفل صغير، وأمر طبيعي أن ينال الصغير قسطاً وافياً من الرعاية والحنان، فالأبناء جميعهم عصبة واحدة، ويوسف وأخوه أضعف اثنين، وما زالا في حاجة إلى رعاية أبيهما وعنايته. انظر أخي المؤمن الحقد والحسد أدى إلى القتل..

ماذا قال إخوة يوسف بعد ذلك؟

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: 9].

اقتلوا يوسف... ما هذه القلوب المتحجرة؟ أتعلم من هم إخوة يوسف؟ إنهم آباء اليهود!

الجُزَاءُ على القتْل

إنها جرأة شديدة على القتل، وما أسهل القتل عند اليهود!

---

(1) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4784)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 226).

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4903).

لقد ظلوا أربعين سنة يخفون الحقيقة عن أبيهم. يتعذب الأب ويفقد البصر من كثرة الحزن على يوسف عليه السلام، وهم في قسوة من القلب.

لقد خططوا لقتله، قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: 9].

لقد وصلوا إلى أبيهم، وقالوا له: ألا تستأمنا على يوسف؟ فهذا حال من ينوي ارتكاب الخطأ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف: 11]. انظر إلى عظمة هذا القرآن، واعلم أنه سيكون أنيسك في القبر، فاجلس وتفهَّم أسرار القرآن واستمتع بها. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: 12].

يرتع من الرتع، والرتع: هو أن يأكل ويشرب بغير حساب.

أرسله معنا يلعب ويأكل بغير حساب، فتخيل أن القرآن يجيز الرتع واللعب، فهم لم يكونوا أطفالاً بل كباراً، ولم يُعلِّق عليها سيدنا يعقوب عليه السلام، فليس عيباً أن يلعب المسلم ويرتع، ويأكل ويشرب ويرتدي أحسن الثياب ويبتسم.

أنت بشكلك هذا نافع للإسلام، أنت بعلمك في الكمبيوتر والإنترنت نافع للإسلام، وأنت برياضتك وقوة جسمك مفيد للإسلام...

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: 14].

لقد طمأنوا أباهم بأنهم جماعة، وسوف يحافظون عليه ولن يأكله الذئب.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15].

كلمة أجمعوا.... تخيل عشرة إخوة اتفقوا كلهم على الإضرار بسيدنا يوسف عليه السلام، ألا يوجد من تحرك قلبه ونهاهم عن هذا الفعل الشنيع؟

ماذا يحدث لطفل له من العمر عشر سنوات، يجردونه من ثيابه وهو ينادي عليهم: يا إخوتي، لا تجردوني من ثيابي، وقبل أن يجردوه من ثيابه أخذوه في أرض بعيدة جداً، حتى لا يعرفها فإذا قدر أنه خرج من البئر لا يستطيع العودة. أيُّ حقدٍ هذا؟

مناجاة يوسف لإخوته

فأخذوا يتوغلون به في الصحراء إلى منطقة مليئة بالذئاب، وبدؤوا يجردونه من ثيابه

وهو ينادي عليهم: إخوتي، ردوا إليّ قميصي أتوارى به في هذا الجب، فإن مت كان كفني وإن عشت ستر عورتي، لقد كان همّ الطفل أن يستر عورته. فما بال الفتيات لا تبالين بالتكشف والسفور؟

انظر إلى هذه المصائب والشدائد، كم تساوي مصائبك بجوارها؟ تخيل معي أنه الآن في البئر لا يرى شيئاً وإنما يسمع أصوات الحيات والعقارب. وسيبقى به ثلاثة أيام، وتخيل أنه ينادي على إخوته: يا إخوتي، إذا اجتمعتم فاذكروا غُربتي... يا إخوتي، إذا أكلتم فاذكروا جوعتي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]، الجب بمعنى: البئر. فلماذا لم يقل القرآن غيابة البئر؟

لأن الجب يختلف عن البئر. الجب هو البئر العميق السحيق المليء بالعقارب والحيات. البئر من الممكن أن يكون قريباً، وبه ماء نظيف، أما الجب فأعمق وأشد.

أأنت متخيل كل هذا لسيدنا يوسف عليه السلام ابن العشر سنوات!!

قال لهم هذا لعلهم يُشفقوا عليه ويرجعوه معهم.

والآن أصبح في قعر البئر وبقي فيه لمدة ثلاثة أيام وهو في ظلمة ووحشة وخوف شديد، لكنه وسط ذلك كله تحمل وصبر رغم كل ما حدث له، ولم يفكر بالانتقام من إخوته بسبب هذا الظلم الذي عانى منه طيلة ثلاثين عاماً.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15]، هنا بدأ يدعو الله ﷻ وهو في البئر الدعاء الذي علمه إياه والده النبي يعقوب منذ صغره، وبدأ يناجي ربه: «يا مؤنس كل فريد، يا مؤنس كل وحيد، يا صاحب كل غريب، يا ملجأ كل خائف، يا منتهى كل شكوى».

ماذا لو كنت مكان يوسف لثلاثة أيام في هذا البئر، وستفقد أهلك لمدة أربعين عاماً، حتى أنك لا تعرف بأنك سوف تعود إليهم يوماً، وأنك ستباع كالعبيد، وقد كنت ابن نبي معزَّز ومكرَّم وأنت الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وكل ذلك بسبب ما فعله بك إخوتك!!! هل من الممكن أن تتخيّل كيف سيكون مستقبلك!

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف: 16]، المفترض أن يكون القرآن (يتباكون) بدلاً من (يبكون)... لا.... إنما هم يبكون فعلاً، حزناً على يوسف، لأنهم عاشوا

بمشاعرهم مع هذه الكارثة، لقد غرق الآن... لقد أكلته الحيات والعقارب... وهكذا فبدؤوا يبكون حسرة وحزناً على يوسف.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: 17]، يا أبانا: لقد جهزنا المسابقات، وبدأنا فيها، ويوسف يجلس لحراسة متاعنا فأكله الذئب... لقد جاؤوا إليه بكلمة توقعها من قبل حتى يتم الكذب بصورة سليمة، فكما توقعتَ تماماً... لقد أكله الذئب... ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، لقد اعترفوا بكذبهم دون أن يشعروا، يا أبانا: إنك لا تصدقنا حتى ولو كنا صادقين، إذاً فهم كاذبون.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴾ [يوسف: 18].

انظر إلى ضيق عقولهم، لقد جاؤوا إلى أبيهم بالقميص كما هو، لم يقوموا بتمزيقه حتى يمكن تصديقهم في أن الذئب أكله فعلاً، ولكن جاؤوا بشاة فذبحوها ولطخوا القميص بالدماء، وقالوا: يا أبانا، هذا هو الدليل لقد أكله الذئب، وهذا قميص يوسف ملطّخ بالدماء، فنظر سيدنا يعقوب عليه السلام إلى القميص وقال: «ما أرحم هذا الذئب! أكل ابني ولم يمس قميصه». انظروا إلى فراسة المؤمن وسرعة بديهته!! هذه هي صفات المؤمن، فهو ليس ساذجاً، ويمتنع كثير من الشباب عن التدين، لأن المتدين في مفهومهم ساذجاً ويستهزأ به. لا، إنما المتدين سريع البديهة، ذكي، ناجح في حياته، يحبه كل الناس...

فسيدنا يعقوب عليه السلام علم من خلال كلامهم أنهم كاذبون... فلماذا لم يقل لهم مباشرة: إنكم كاذبون ويواجههم بالحقيقة؟... إنها التربية السليمة والحكمة السديدة، فهو لا يريد أن يزيد حقدهم وحسدهم على يوسف، ولا يريد أن يكسر الحواجز بداخلهم.

فهذه نصيحة للآباء والأمهات، إذا فعل ابنك معصية فلا تعيره بها على الدوام، وكلما فعل خطأ تذكره بالمعصية التي فعلها... ولكن غض الطرف عن أخطائه ولا تواجهه بها، ثم ابذل له النصيحة دون أن يشعر.

عندما جاء الأبناء بقميص يوسف عليه السلام قال أبوهم: فصبر جميل. الطبيعي من هذا الأب المكلوم أن يفعل أكثر من أن يقول: فصبر جميل! فمثلاً يقوم بسرعة ويذهب يبحث عن ابنه، أو يطردهم، أو أي شيء من هذا القبيل، إلا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، لأنه حكيم ودقيق في معالجة الأمور.

سيدنا يعقوب عليه السلام يعلم من خلال الرؤيا أن ابنه ما زال حيًا، لأن رؤيا الأنبياء حقّ.

فلماذا لم يذهب للبحث عنه؟... فقد خشي أن يذهب للبحث عنه ويكون الأبناء قد أخفوه في مكان ما، فهو يعلم أنهم لن يقتلوه، لأنه سيصبح نبيًا.

إلى هذه الدرجة يكون إعجاز القرآن؟ ما هذا الصبر الجميل؟... أتتخيل صعوبة موقف سيدنا يعقوب؟ فهو يقول لأبنائه: انظروا ما فعلتم بي فلا أفعل معكم مثلما فعلتم معي، ولكن سأعاملكم برحمة وأصبر صبرًا جميلاً، صبرًا لا ضجر فيه ولا شكوى. هذا هو الصبر الجميل... يا من فقدتم أولادكم... يا من أصبتم بالمرض الشديد... يا أصحاب العاهات هل تستطيعون أن تصبروا صبرًا جميلاً! ولذلك يقول العلماء: لا يقرأ سورة يوسف محزون إلا سرَّى الله عنه.

العبادة تحتاج إلى عون الله الزم باب مولاك

بعدما قال يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]، بمعنى أنني لا أستطيع أن أصبر إلا بالله تعالى، فالعبادة تحتاج إلى عون، فالصبر بالله أي: أن الله هو الذي يعينك ويساعدك على الصبر.

قد ورد في الأثر أن جبريل جاء لسيدنا يعقوب عليه السلام، وقد سقط حاجباه وفَقَدَ بصره من هول الفاجعة التي حلت به، لقد فقد ابنه أربعين سنة، فقال له جبريل عليه السلام: لم سقط حاجباك وفقدت بصرك؟ فقال يعقوب عليه السلام: فعل بي ذلك طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله إلى يعقوب أتشكوني إلى غيري يا يعقوب؟ فقال: يا رب، أخطأت فاغفر لي.

يوسف في البئر

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يوسف: 19].

وجاءت سيّارة أي: أناس مسافرون، وسميت سيارة من السير الطويل: هؤلاء الناس مسافرون من الشام إلى مصر... وما الذي جعلهم يمرون في هذه الصحراء في الجنوب؟ لقد ضلوا الطريق... وما الذي جعلهم يضلون الطريق؟... إنه الله سبحانه وتعالى... إن أشياء كثيرة تحدث في حياتنا اليومية يظنها المرء شرًا، ولكن الله يريد بها رحمة بإنسان آخر.

الوارد: هو المسؤول عن إحضار الماء من البئر، فأنزل دلوه في البئر فإذا به وهو يرفع الدلو يجد شيئًا ثقيلاً به، يجد غلامًا كأجمل ما يكون قال: يا بشرى، ولم يقل: يا بشراي. يا بشراي أي: يا فرحتاه، أما يا بشرى فمن شدة فرحه نادى على البشرى والفرح ذاته.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ [يوسف: 19].

تقول التفاسير: إن أصل كلمة أسروه أي: أخفوه... ولماذا؟

لأنهم شعروا أن هذا الغلام من أصل كريم فخافوا أن يراه أحد فيأخذه منهم...

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: 20].

لقد بيع سيدنا يوسف عليه السلام وكانوا فيه من الزاهدين لماذا؟... ألم يساو شيئًا؟ فلا تغضب إذا قال الناس: إنك لا تساوي شيئًا فليس المهم ما يقال في الدنيا، وإنما ما يقال عند الله تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21].

لقد بيع سيدنا يوسف عليه السلام إلى عزيز مصر أي: وزير الخزانة... ولماذا وزير المالية بالتحديد؟... كي يتعلم منه... لأنه سيصبح وزير الخزانة مستقبلاً. انظر إلى تدبير الله في الكون وقدرته؟

من دلائل الإيمان أن يلقي الله حبّك في قلوب الناس، ومن دلائل حبّ الله للعبد حب المؤمنين له، ومن دلائل بغض الله للعبد بُعْد المؤمنين عنه وتجنّبهم إيّاه.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: 21]، أين التمكين في هذا الرق وهذه العبودية؟...

التمكين هو دخوله بيت العزيز، ليتعلم الاقتصاد ويجيد علم المالية، تمهيدًا للتمكن في الأرض. وهذا الرجل (عزيز مصر) سوف يعامله كابنه ويلقنه هذه الخبرات.

انظر أخي الحبيب متى قال الله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؟... وهو في الثانية عشرة ولكن هذا التمكين سيكون بعد أربعين سنة...!! ولكن إذا قضى الله أمرًا فلا رادَّ لقضائه، فالله قضى من الآن أنه سيكون نبيًا، وسيكون ملكاً على مصر و... فلا جدال في ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 22].

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، أي: وصل إلى سن الثلاثينات. فمنهم من قال: إنه وصل خمسًا وثلاثين سنة، ورأي آخر يقول: إنه وصل إلى أربعين سنة، واستند هذا الرأي إلى قوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، الحُكم هنا بمعنى: الدين، والعلم هو علم الدنيا، بمعنى إذا أردت النجاح في الحياة فلا تبحث عن الدين وحده أو العلم وحده، فأعطى الله لسيدنا يوسف عليه السلام الدين وأصبح خبيرًا في فنون الحياة، كما أعطاه شطر الجمال، يقول النبيّ ﷺ: «**إنَّ الله أعطَى يوسفَ شَطْرَ جَمَالِ المَخْلوقاتِ**».

محطات الإغراء

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23].

وتبدأ هذه الآية بمحطات الإغراء التي وقفت بها امرأة العزيز مع سيدنا يوسف، لقد سلكت معه أحد عشر مسلكًا للإغراء... أخي: إن هذه الآية تبين خطورة الزنا ومقدماته... فانتبه جيدًا.

يتعرض سيدنا يوسف عليه السلام إلى هذه الأساليب، وهو ثابت، كلما تعرض لمحنة ثبت أمامها.

فهيّا بنا إلى عوامل الإغراء التي تعرّض لها سيدنا يوسف، فهو شاب أعزب وأصبح في الثلاثين من عمره، وهو عبد لا يدري هل سيتزوج أم لا، فهو أكثر جرأة على المعصية، قوي البنية، بلغ أشدَّه، ليس ضعيفًا أو غير قادر على الاقتراب من النساء، وكذلك العبد يقبل منه وهو أقل من الحر من العقوبة، وحده دون خليل صالح يعينه، لأنه كان في بلد لا يعبد الله فيها أحد إلا هو... هذا بالنسبة ليوسف عليه السلام...

أما امرأة العزيز، فالعزيز لن يتزوج إلا الجميلة، وهي صاحبة السلطة تستطيع أن تفعل كل شيء لا حياء ولا خوف ولا تلجلج، فأحيانًا الخجل يمنع المعصية، أما هي فلا...

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ وتأتي هذه الكلمة رويدًا رويدًا، ظلت فترة طويلة تراوده، لقد ظل معها ثمانية وعشرين عامًا، فبدأت معه بالملاحقة والوُدّ، وهي تقترب منه خطوة خطوة، ثم هي امرأة لها قدرة على جذب الرجل...

﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ أي: أن أسباب المعصية مهيأة من وجود المكان، فإن المعصية لا تقع أحيانًا، لأن صاحبها قد لا يجد مكانًا، لا يجد فرصة للقاء، أما سيدنا يوسف في بيتها.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ إنه في أمانٍ تام، فهو ليس بابًا واحدًا وإنما أبواب كثيرة فغلّقتها،

وجاء القرآن بلفظ: «غَلَّقت» وليس أغلقت، لما فيه من التشدد والإحكام، فهو في مأمن من الفضيحة. كثير من الشباب يمنعه الخوف من الفضيحة!! أما سيدنا يوسف عليه السلام فقد توفرت لديه كل أسباب المعصية.

ثم قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي: قامت وتزينت فهي في غاية الزينة والجمال الذي يعين على الفاحشة.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله أن أعصيه، يا لحلاوة هذا الدين!

فهذا هو القرآن يعرض لقصة واقعية في منتهى الخطورة، ولكنك لا تشعر بتحريك شهوة إذ إنك تسمع ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ تشعر بعلوّ النفس وارتقائها.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 23]، أيقصد بـ«ربي» العزيز أم الله سبحانه وتعالى؟ لهذه الكلمة تفسيران، **أحدهما**: أنه العزيز، **والثاني**: أنه الله سبحانه وتعالى، ولكن لماذا هذا الغموض؟...

حتى تشعر بعظمة القصة، فتجد الضمائر لها أكثر من معنى، وكذلك يريد القرآن أن تعمل عقلك، فكل الآراء صحيحة، والفائدة لك في النهاية. تقول الآية: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يقصد بربي هنا: العزيز... لماذا؟

لأن سيدنا يوسف عليه السلام في هذه المرحلة عبدٌ في قصر العزيز... ولكن لماذا لم نقل الله تعالى؟ ولماذا قصد العزيز؟... لأن ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لم تؤثر في امرأة العزيز، ولم تشعر بها، فأراد أن يذكرها بزوجها وأنه صاحب فضل عليه... فإذا أردت أن تخوني زوجك فأنا لن أخون من أكرمني وأحسن إليّ...

ما أجمل وفاء يوسف وعرفانه بالجميل!... وسط هذه الفتنة الشديدة وهذه العواصف المدمرة، فهو لا يزال يتذكر الجميل الذي قدمه له العزيز منذ ثمانية وعشرين عامًا، انظر إلى هذا الثبات.

لقد تعرّض للفتنة والابتلاء، ولكن الله تعالى لن يتركه وحده، وكذلك أنت أخي الحبيب إذا كثرت عليك الفتنة فاعلم أنه لن يتركك، ولكن عليك إرضاءه فقط ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]، المخلَصين أي: خالصين لله وحده. اجعل نفسك خالصة لله، قل: يا رب، أمنيتي في الحياة إرضاؤك. أخلص حياتك لله فلن يتركك في الفتن والشدائد.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: 25].

جاء في الأثر أنها قالت: يا يوسف، ما أجمل وجهك! فقال: في الرحم صورني ربي. يا يوسف، ما أجمل شعرك، قال: أول شيء يبلى مني في قبري.

أرأيت هذا الوسيم كيف فهم الحقيقة؟ فليس مغرورًا بجماله، يا يوسف، ما أجمل عينيك. قال: بهما سوف أنظر إلى ربي فلا أعصيه بهما. يوسف ارفع عينيك فانظر بهما إليَّ. قال: أخاف العمى يوم اللقاء.

انظر هي تحادثه في الدنيا وهو منشغل بالآخرة، فيا من لا تغض بصرك في القنوات الفضائية أو في الشارع أخشى أن تحجب هذه العين عن النظر إلى الله يوم القيامة. يا يوسف: أريدك أن تدنو مني وأنت تبعد عني، قال: لو دنوت منك ابتعدت عن ربي، أريد القرب من ربي ببعدي عنك.

سباقُ الطاعة والمعصية

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ انظر إلى هذا التصوير القرآني الجميل، إنه يصور لك هذا السباق ناحية الباب. هي تسابق الباب كي تطلبه، وهو يسابق الباب هربًا منها، ثم انظر... أهو باب واحد أم أبواب؟ إنها أبواب كثيرة. لقد ظل يفتح بابًا تلو باب وهي تحبو خلفه، تريده. انظر إلى هذا الانحطاط من المرأة. فإذا فقدت المرأة حياءها فقد فقدت كل شيء. إياك أن تذلي نفسك للمعصية.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ من الذي سبق؟ إنه هو بدليل أنها مزقت قميصه من الخلف. أيهما أسبق الطاعة أم المعصية؟ إنها الطاعة...

أيها الشباب، أيهما أسبق في قلبك. الطاعة أم المعصية؟ وهل أخذت قرارك بقطع علاقتك الحرام؟

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: 25].

ماذا تقول لزوجها عندما رأته؟

﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25].

من المفترض أنها تسأل فقط (ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا؟)، ولكنها سألت وحكمت عليه في نفس الوقت بالسجن والعذاب الأليم... من يحاول الاعتداء عليها واغتصابها ما جزاؤه؟... إنه القتل ولكنها لم تقل: يقتل... لأنها ما زالت متعلقة بهذا الأمل، إنها ترهبه

فقط علّه يلين، إنها لا تخاطب زوجها، ولكنها تخاطب يوسف وتنظر إليه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾. وبدأت بالسجن قبل العذاب، لأن السجن قد يكون أهْوَن من العذاب...

حب أم شهوة

يقولون: إن من يحب لا يكره! ألم تقل امرأة العزيز: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ كانت تحبه وتعشقه، أهكذا يكون الوفاء؟ بمعنى: هل كان حبًا أم شهوة؟ لقد كانت شهوة بدليل أنها فضحته عندما انكشف أمرها.

فرد سيدنا يوسف قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: 26]، معنى هذا أن نفسه يصعب الوصول إليها، فهو يملكها ويسيِّرها وفق مراد الله.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: 26] هل حضر هذا الشاهد ورأى هذه الفضيحة أم جاء به العزيز ليشهد الواقعة؟ ولكن هل سيفضح العزيز نفسه بإحضار شاهد؟ إذًا ما الأمر؟...

لم يعرف بهذه القصة إلا أربعة فقط هم: العزيز، وامرأة العزيز، ويوسف، والشاهد، فالعزيز يخشى أن يمس وضعه الاجتماعي، فقال لسيدنا يوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: 29] لا تتحدث في هذا الموضوع ثانية، ولا تخبر به أحدًا، وقال لزوجته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 29].

انظر إلى هذا التصرف الغريب من العزيز! أهذه هي أقصى درجة في علاج هذه الفضيحة؟ نعم، لأنه يخشى على وضعه الاجتماعي فهو وزير الخزانة... أمكانتك الاجتماعية أعز عليك من فاحشة بيتك؟ والعزيز قد تَستّر على الجريمة وقبل الدّياثة في بيته، فإذا بنساء المدينة كلهن يفضَحْنه ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 30]، فإياك أن تتنازل عن الأخلاق في مقابل وظيفتك أو المال. فلا تقل: الوضع الاقتصادي ضعيف وأنا بحاجة إلى مال. فإن الله سبحانه وتعالى سيكرمك ويعزّك ويرفع مكانتك كما فعل مع سيدنا يوسف عليه السلام.

نار الغيبة

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ وكيف سمعت امرأة العزيز بمكر نسوة المدينة؟...

لقد انتشر الأمر، وبدأ الناس يتداولون الكلام فيما بينهم بسهولة.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ الواضح أن هؤلاء النسوة من الطبقة الراقية، وقالت امرأة العزيز إليهن: لقد أعددت حفلاً، وأتمنى أن تزُرْنني في بيتي ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، السكين كي يقطعن بها التفاح، لكنها تخطط لشيء آخر.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، قالت: اخرج عليهنّ، فهو ما زال في بيتها على الرغم من علم زوجها بأمرها! ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾، أي: عَظُمَ في أعينهن، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ليس المقصود اليد كلها، وإنما خدَشْنَ أيديَهُنّ، فانظر إلى القرآن يعبِّر عن الإصابة بالقطع.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾. إنهن مبهورات بجمال يوسف.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: 32].

انظر إلى المرأة المتيّمة ماذا قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ﴾، هل من الممكن أن تصبح امرأة كهذه؟

إن القرآن الكريم يصوِّر لنا هذه المشاهد ليقول للمرأة: احذري أن تكوني مثلها! احذري أن تبحثي عن رجل أو شاب... فإن من تبحث عن الشباب والرجال في أيامنا هذه، أهذه من أمة محمد ﷺ؟ أهذه هي حفيدة السيدة عائشة والسيدة أسماء ﷺ فلتحذري!

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: 33، 34].

ما هذه الفتن التي تعرَّض إليها سيدنا يوسف عليه السلام؟ لم تكن امرأة واحدة، بل نساء المدينة كلها يراوِدْنَهُ عن نفسه، ذهبت كل واحدة منهن إلى امرأة العزيز، وتقول لها: دعي يوسف لي أقنعه بقبولك، فتذهب إليه وتراوده عن نفسه. أَبَعْدَ كل هذا يثبت سيدنا يوسف عليه السلام؟ أخص بهذا الكلام الشباب والرجال، لا بد أن تثبتوا... لا تنهاروا من أول إشارة... ويرفع يوسف عليه السلام يديه إلى الله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، قال: يا رب، إن مشقة السجن أحب إلى قلبي من مشقة المعاصي.

اقْرِنِ الدُّعَاء بطلب العون

لماذا تأخرت الاستجابة إلى هذا الوقت؟

فالمرأة تراوده من سنوات طويلة، وهو يدعو الله كثيرًا، فلماذا كانت الاستجابة هنا؟ يقول العلماء: (عندما ارتبط الدعاء بطلب العون استجاب الله له)، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

يا رب: انقطعت بي الأسباب، وما من حيلة لي، يا رب: أتوسل إليك أن تخرج هذا الذنب من قلبي... ليكن هذا دأبنا مع الله.... الدعاء.

هل تعلم أن سيدنا يوسف عليه السلام تعرَّض لفتنة بعد هذا الدعاء؟... لا، لقد اختفت المعصية واختفت الفتنة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: 35].

أصرَّ العزيز على الخلاص من يوسف عليه السلام حتى بعد ظهور براءته، وتأكدت المدينة كلها من نقائه: فالأمر قد كبر، وتضخَّم وسيسبب حرجًا للعزيز. فلا بد أن يسجن يوسف، ولكن انظر... ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾، أي: إلى وقت غير محدد، إلى أن ينظروا في أمره، ما أشدها على نفس يوسف! بل هناك فتنة أشد من ذلك، وهي أنه مسجون في تهمة شرف، وهو من؟... هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36].

من هما الفتيان؟ أحدهما: ساقي الملك، يسقي الملك خمرًا، والآخر: طاهي الطعام، الذي يعدُّ للملك طعامه.

وعندما دخلا مع يوسف عليه السلام السجن رأى كل منهما رؤيا، رأى الأول: أنه يعصر خمرًا للملك، ورأى الثاني: أنه يحمل إناءً على رأسه، وتنزل الطير من السماء تأكل منه خبزًا.

فقالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

كيف عرف الرجلان أنه من المحسنين؟... فهذا أول لقاء بينهم، لقد دلَّت صفاته عليه، فأخلاق المؤمن تدل عليه. يا ترى: هل يعلم الناس عنكم أنكم محسنون؟

من أجل ذلك ذهبوا إليه؛ لأن مظهره من المحسنين وقد لفت نظرهم الأخلاق الحسنة والمعاملة باللطف والأدب. وبدأوا بسرد رؤياهم على مسمعه، فعرف من كلامهم أن واحداً منهما سيموت والآخر سيعيش.

يريد أن يعلِّمنا أن الذي يصلح في الصغيرة سيُسْتَخْدَم في الكبيرة. وأن مشكلة الشباب

أن يكون مثل الكبار، ويريد أن يبدأ بدور كبير، وهذا لا ينفع، بل عليه أن يتعلم بالدور الصغير حتى يعرف كيف سيقوم بالدور الكبير.

ويبدأ يوسف معهما بوضع خطة ذكية فهو لم يقل لهما مباشرة أن واحداً منكما سيموت والآخر لا.

قال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: 37]، بدأ يتكلم معهم بأرزاقهم ثم شيئاً فشيئاً بدأ يكلمهم عن الدين ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: 38]، كان دائماً ينادي ويقول لهم: يا صاحبي السجن، انظر إلى الأدب وكيف يتعامل مع الناس ويحبب الناس إليه، إذن سماته جميل المظهر ومؤدب ويعرف كيف يعامل الناس، وحكيم ومحسن وله موهبة تفسير الأحلام ويعرف كيف يدخل إلى قلوب الناس. وبعد أن دعاهم إلى الله الواحد بدأ يفسر لهما الرؤيا ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41].

لم يحدد من منهما سيموت ومن منهما سيظل على قيد الحياة، فقال لهما: واحد منكما سيعود إلى عمله في قصر الملك، وأما الآخر فسيقتل وتأكل الطير من رأسه، كان سيدنا يوسف وهو في السجن يصلح المساجين ثم طلب ممن سيخرج من السجن بأن يخبر الملك عن قصته.

وبعد ثلاثة أيام قتل الأول والآخر خرج من السجن وعاد إلى عمله في قصر الملك، ولكنه نسي أمر يوسف، وبقي يوسف في السجن لمدة تسع سنوات، إلى أن رأى الملك رؤيـــا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]، أراد الملك أن يعرف تفسير هذه الرؤيا فطلب أن يحضروا له من يستطيع أن يفسرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43]، عرف الملك أن هذه الرؤيا مهمة لمصر فجمع كل العلماء والكهنة في احتفال عام حتى يتم تفسيرها ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، في بادىء الأمر قالوا: إنها كوابيس ولكن لا نعرف تفسيرها، وقال رجل منهم ـ وهو الذي كان في السجن مع يوسف ـ إني أعرف رجلاً يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وذهبوا إلى يوسف في سجنه وكان في مكان بعيد عن المدينة وقال له: يوسف أيها الصدِّيق، أفتنا في هذه الرؤيا: سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف.

ويبدأ يوسف بتفسير الرؤيا فيقول: سيكون هناك مشكلة في الثروة الحيوانية وسيكون هناك سبع سنين خير وسبع سنين عجاف. ثم يقول لهم: أكثروا الإنتاج وابذلوا كل طاقاتكم واعملوا أضعاف أضعاف الإنتاج تزرعون دأباً وتحصدون، لأنه ستأتي سنين عجاف.

قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: تبقى البذور في سنبلها حتى لا تسوس ويتم تخزين هذا الإنتاج للأيام العجاف وقللوا من استهلاك الطعام.

وضع خطّة لترشيد الاستهلاك لمدة سبع سنين وسياسة تخزينية متميزة حتى لا يسوس الأكل، كان مصلحاً ورجل اقتصاد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، سبع سنين لزيادة الإنتاج مع ترشيد الاستهلاك وتخزين المحصول للسبع السنين العجاف، ثم تخزين البذور كمواد أوليّة ليجدوا ما يزرعونه في المستقبل.

إن هدف القصة الإصلاح وثبات الأخلاق، لقد ظلموه ووضعوه في السجن ظلماً، لو كنت مكانه وأنت في السجن الآن وجاؤوا إليك لتحل لهم هذه المشكلة ويرسل إليك الملك ماذا ستقول؟!

ستقول: لا بدّ أن أنتقم، أو تقول لهم: أخرجوني أولاً ثم أفسر لكم الرؤيا، وبعد أن تخرج من السجن لا تنفّذ ما وعدتهم به لأنك تريد الانتقام.

ولكن سيدنا يوسف ورغم كل ما حصل معه لم يفعل كل هذا مع العلم أن أهل مصر لم يؤمنوا، فلم نجد في سورة يوسف ذكر لإسلام أهل مصر وهو لم يجبرهم على أن يسلموا وكأن الله يقول لنا: أن الأمر ليس مرتبطاً بعضه ببعض؛ لأن الإصلاح هو للإصلاح وأن تنقذ أرواح الناس هو أمر مهم، وبعد كل ذلك يُتهم الإسلام بأنه دين إرهاب ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: 54]، بعد أن وجده الملك صاحب أدب وأخلاق وصاحب خطة اقتصادية طلب أن يخرجوه من السجن، ولكن يوسف رفض وأراد أن لا يخرج دون أن تثبت براءته من التهمة التي من أجلها دخل السجن ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وبعد أن ثبتت براءته كما ذكرنا سابقاً خرج من السجن، واستخلصه الملك لنفسه وجعله وزيراً للاقتصاد والمال في البلاد لحكمته وأمانته ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، هو لم يضع الخطة فقط، ولكنه أراد تنفيذها بنفسه، ونجحت الخطة. وحصل ما فسّره يوسف لرؤيا الملك، وحلّت الأزمة بالبلاد العربية ولكن مصر هي البلد الوحيد التي لم تؤثّر فيها الأزمة وأصبح عندها فائض غلال وبذور وانتشر

الخبر بين الدول المجاورة حتى وصل إلى فلسطين، وإلى إخوة يوسف.

وعندما تحدث المجاعة تنتشر الأخلاق السيئة:

1 ـ تبدأ أعداد المتسولين بالازدياد.

2 ـ يحتكر التجار البضائع، وينتشر الجشع بين الناس.

3 ـ تنتشر البطالة بين الشباب والعمال.

ففكر سيدنا يوسف ماذا يفعل؟ وسّع خطته الاقتصادية، وأصبح الفائض في مصر هو ملك لكل الناس ويحق لأيٍّ كان أن يأتي ليأخذ الطعام ولكن حدِّدَت الكمية بقدر بعير واحد فقط حتى يتمكّن الجميع من الحصول على الطعام ﴿جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72]، وجعل لكل شخص بطاقة خاصة به حتى يُعرف من خلالها أنه حصل على الطعام كي لا يحصل أي نوع من الفوضى، وبدأ يوسف يستقبل كل الوفود التي تدخل إلى مصر للحصول على الطعام ويجلس بنفسه لمقابلتهم، ثم يبدأ بسؤالهم من أين أتوا ومن أي عائلة هم، وكان يعامل الناس بأدب وبكل احترام، ويبدأ بختم بطاقاتهم دون إهانة: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]، وهكذا قضى يوسف على الاحتكار والبطالة والتسول بخطة عبقرية لم يسبق لها مثيل، واستطاع بفضل تواضعه أن يتعرّف على كل الناس حتى وصل إخوته فعرفهم وهم له منكرون.

وقد كانت خطة يوسف ترمي بأن يحضر كل من أراد الحصول على الطعام معه بضاعة من صنع بلده، تماماً كمبدأ المقايضة: الطعام... الطعام مقابل البضاعة التي يحضروها.

يا مسلمين، اليد العليا خير من اليد السفلى، ورغم الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد رفض يوسف أن يعطيهم القمح دون بضاعة مقابلها، أي: دون إنتاج، وهكذا حل مشكلة البطالة وأصبحت مصر والعالم العربي في إعداد الدول المنتجة.

أرأيتم الصورة الآن؟! تحوّل يوسف من شاب كان مسجوناً إلى شاب يقود الاقتصاد في العالم العربي نتيجة صبره وثباته، فقد استطاع بفضل كل هذا أن يصنع من المجاعة فرصة للنجاح في مصر، ومن البطالة خلية نحل لا تهدأ.

يوم اللقاء

كان إخوته ووالده يعيشون في فلسطين، فبدأت الدول المجاورة لمصر تعاني من الجوع، فيذهبون إلى أخيهم في مصر، انظر إلى الذي ظُلم من إخوته وصبر على ظلمهم

كيف أعزه الله، لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: 90].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]، هم لم يعرفونه؛ لأنه عندما تركوه كان صبيّاً صغيراً عمره عشر سنوات، وها هم الآن يقفون مع حشد كبير من الناس ويمدون أيديهم لأخيهم ليعطيهم الطعام، انظر إلى الثبات الأخلاقي.

يا شباب، كلما كان الاختبار شديداً وصعباً وقاسياً يكون الصبر أقوى وأشد والثبات أقوى والأخلاق أفضل.

لو كل الناس سرقوا لا تسرق، ولو كل الناس غشوا في الامتحانات لا تغش؛ لأن الدنيا دار اختبار.

يا شباب، اتقوا الله واعلموا أن الله موجود، لو كل الناس حادوا عن شريعة الإسلام فاثبت أنت.

خطة يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]، كانت خطته إذا أعطاهم من الطعام فلن يعودوا إليه مرة أخرى، لذلك تعمَّد أن لا يعطي إخوته شيئاً من الطعام، فهم عندما حضروا إليه جلبوا معهم بعض الهدايا والبضائع مثل السجاد والمنسوجات أي: بضاعة مقابل الطعام الذي سيحصلون عليه، وكانت هذه من ضمن الخطط والإصلاح التي أسسها سيدنا يوسف.

وكانت من عادة يوسف أنه كلما أتى وفداً من الوفود يحدثه ويسأله من أين أتى، أي: من أي بلد ومن أي عائلة وكم عددهم، فعندما جاء دور إخوته وتحدث معهم عرف منهم أن لهم أخ بقي مع والده فعندما أحضروا بضاعتهم قال لهم يوسف: ائتوني بأخ لكم من أبيكم.

قال تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، فبدأ يوسف بإغرائهم بأن ائتوني بأخيكم وأنا أعطيكم طعام زيادة، وقالوا له: إننا لا نستطيع أن نحضر لك أخانا؛ لأنهم يعلموا أن والدهم لم ولن يعطيه إياهم بعد ما فعلوا بأخيهم يوسف في الماضي.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: 60].

أي: إن لم تحضروه فلا طعام لكم عندي بعد الآن. ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يوسف: 61]، أي: سنحاول إحضاره بطريقة ما، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62].

أمر فتيانه ـ أي: مساعديه ـ أن يعيدوا إليهم البضاعة التي أحضروها معهم ليبادلوا بها الطعام، وعندما يعودون سيجدون بضاعتهم رُدت إليهم حتى يعودوا إليه مرة أخرى.

فلما عادوا إلى والدهم يعقوب قالوا له: انظر إن بضاعتنا ردت إلينا، وانظر إلى هذا الوزير الكريم والطيب فتشجع يعقوب وأرسل معهم أخاهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف: 69]، شغل يوسف إخوته بالبضاعة وأخذ أخوه إلى مكان جانبي، وقال له: لا تخف أنا أخوك يوسف وأريد منك أن تساعدني على تنفيذ خطة، لكي أُعلم إخوتي درساً في الأخلاق.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، أي: بعد أن جهزهم بالطعام وضع كوب من الذهب وهو كان للملك في رحالهم دون أن يشعروا، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فأذن مؤذن أنهم سرقوا، أي: لقد تم سرقة كوب الملك ومن يأتي به له حِملُ بعير وأنا به زعيم، ولكنهم قالوا: لقد علمت أننا لم نأتِ لنفسد في الأرض وما كنا سارقين، ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: 74، 75]، أي: قالوا له: إن وجدت الكوب عند أي أحد منا اتخذه عبداً أو ضعه في السجن. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، فلما فوجئوا بذلك ردوا عليه وقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 77]، انظر إلى الانهيار الأخلاقي، هو يستطيع أن يضعهم في السجن بعدما فعلوا معه كل ذلك الظلم، فقالوا له: إن له أباً وهو شيخ كبير فلتأخذ مكانه أي واحدٍ منا، فنحن لا نستطيع أن نعود إلى أبانا من دونه، انظر إلى نتيجة الصبر، انظر إليهم بدؤوا يستعطفونه حتى لا يأخذ أخاهم، انظر إلى الثبات كيف تحولوا من إخوة أشرار إلى إخوة لطفاء دون أي إهانة أو ضرب، فقال لهم: معاذ الله أن نأخذ من لم نجد متاعنا عنده. ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾، فلما يئسوا منه ولم يجدوا حلًا آخر، قال كبيرهم:

ألم تعلموا أن أباكم أخذ منكم ميثاقاً في الله، ومن قبل فرطتم في يوسف فإني لن أبرح هذه الأرض - أي: مصر - حتى يأمر أبي أو يحكم الله.

العودة إلى فلسطين

ثم عادوا إلى أبيهم يعقوب في فلسطين وقالوا له ما حدث وعرضوا عليه الدليل؛ لأنه لم يصدقهم وبدؤوا يسافرون من فلسطين إلى مصر، وبالعكس دون جدوى ثم قالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 82، 83].

انظر إلى الوالد كيف يستعين بالصبر به بعد كل مصيبة؛ لأنه مؤمن بالله ويعلم أنه لن يُضيِّع صبره.

قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]، قالوا له: ألا زلت تتذكر يوسف وتذكره وأنت في هذا الحزن، قال لهم: بل أشكو بثي وحزني إلى الله، وهنا نتذكر فلسطين، وا أسفاه على فلسطين، اشكُ بثك وحزنك إلى الله، كان عمر بن الخطاب ﷺ عندما يقرأ هذه الآية يبدأ بالبكاء. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]، ثم عادوا إلى أخيهم ودخلوا عليه وقالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، هنا قد اكتمل الدرس فهم قد ذُلُّوا فعلاً وتعبوا كثيراً، فأحضروا له بضاعة مختلفة ومتنوعة حتى يتصدق عليهم بالطعام، فرد عليهم يوسف قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: 89]، أراد أن يذكرهم بما فعلوه به بطريقة لينة، ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ﴾ [يوسف: 90]، انظر إلى ثبات الأخلاق ونتائج الصبر فقد منّ الله عليهم وأعطاهم جزاء صبرهم وهو وأخيه ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أراد أن يعطيهم الدرس وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم. ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91]، أي: أنت أفضل منا عند ربنا، لقد فضَّلك الله علينا وأعطاك جزاء صبرك وعملك، ونحن الآن نعترف بأخطائنا، فردَّ عليهم يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ

وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: 92]، أي: لا خوف عليكم الآن فأنتم في أمان، فارجعوا إلى أبيكم بقميصي هذا وارموه عليه يعود بصيراً ويأتي قومكم أجمعين. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 91]، أي: بعد ثلاثون عاماً من الغياب احتضن والديه وإخوته وكان اللقاء الجميل، واجتمعت العائلة من جديد ورفع والديه على العرش. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]، انظر إلى ثبات الأخلاق وإلى أدب الكلمات، هو لم يقل له: إن إخوتي وضعوني في البئر حتى لا يجرح إخوته، ولم يقل لهم: إنني أتيت بكم من المجاعة بل من البدو، وقال لهم: إن الشيطان هو الذي نزغ بيني وبين إخوتي حتى يبقى حب إخوته في قلبه بعد أن جمعهم الله.

تحلُّوا بثبات الأخلاق والصبر الإيجابي؛ ولو استسلم الجميع للشر والمعصية تمسّكوا بالعقل والحلم، فقد رأيتم من خلال استعراضنا لقصة سيدنا يوسف مع إخوته نتيجة ذلك كله.

نتائج الثبات والصبر:

كل الذين انحرفوا أخلاقيًا في هذه القصة تابوا أو اعتذروا في النهاية إلى يوسف.

إخوته قال: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91].

زوجة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

العزيز فقد وظيفته بعد أن أخفى الموضوع.

صاحب الثبات الأخلاقي ولو بعد أربعين سنة، هو من يكسب في النهاية: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: 99]، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف؛ 100].

من هو مالك الملك؟! قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: 21]، انظر عندما يكون ربك معك، ربنا لا يُغلب أبداً، وربنا معك يا صاحب الإصلاح، يا صاحب الصبر الإيجابي، يا صاحب ثبات الأخلاق.

غالب على أمره:

1 ـ غالب على أمره: يوم رماه إخوته في البئر، وهو الذي رباه والده إلى أن أصبح في عمر العشر سنوات حتى يخرج بأخلاق يعقوب وإبراهيم.

2 ـ غالب على أمره: يوم جعل السيارة يخطئون في الطريق ويدخلون إلى وسط الصحراء ويخرجوه من البئر.

3 ـ غالب على أمره: عندما جعل السيارة يبيعونه إلى العزيز في مصر وكان وزيراً للاقتصاد، ورغم أنه كان عبداً في بيته ولكنه تعلم الاقتصاد، ولم يضع يده على خده، تعلموا يا شباب.

4 ـ غالب على أمره: يوم رأى الملك الرؤيا.

5 ـ غالب على أمره: يوم ظلمته امرأة العزيز وسُجن، ثم طلب الملك مقابلته.

6 ـ غالب على أمره: يوم دخل ساقي الملك إلى السجن خطأً حتى يرى يوسف.

7 ـ غالب على أمره: يوم جعل مصر كلها والعالم العربي يحتاجون إليه حتى إخوته احتاجوا للذهاب إليه ليعيدوه إلى والده.

8 ـ غالب على أمره: يوم جعل يوسف يصل إلى الملك ويكون صاحب المبادرة التي أنقذت مصر والعالم العربي من المجاعة والبطالة.

ربنا بيده الملك، أصلح والله معك، ماذا لو كان يوسف لم يتعلم الاقتصاد في بيت العزيز، أو استسلم لامرأة العزيز وعمل الفاحشة، ولكن كان السجن أحب إليه حتى يصل ويصبح عزيز مصر، وعندما أصبح وزيراً ولم يتواضع كيف كان سيقابل إخوته.

حركة الإصلاح هي التي نجحته وهي التي جعلته يغلب أيضاً عندما أصلح جعل الله الظروف لصالحه.

رسالتي إلى طلاب الجامعات والمدارس وحديثي التخرج والذين لا يعملون، الفرصة تدق على بابك عندما تكون مستعداً، والله يرسل لكل واحد فرصة والله غالب على أمره.

استعد مثل ما فعل يوسف، استعد لأن الفرصة أتته بعد عشرين سنة، تعلموا هذا الكلام واستعدوا والآية تقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87].

انتهت السورة، يا ترى هل المعاني وصلت، اليوم كان إصلاح اقتصادي، وبالأمس كانت العلاقات الزوجية وقبلها كانت علاقات اجتماعية وعائلية، اعملوا يا شباب.